

الورقة الملهلكة

أقصوصة مصّرة
بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

ألقى الشاب نظرة على
البناء وقد لاحت في عينيه
الأحلام وارتسمت ابتسامة
خفيفة على شفتيه الممتلئين ،
وغادر السيارة . فبدت قامته
الرشيقة وبذلاته الأنيقة ،
ودخل إلى القهوة ، واختار
ركناً قصياً ، وكان المكان

خالياً ساكناً ، لأنه لا تدب فيه الحياة عادة إلا بعد
انصراف العمال في المساء . فجلس يحتمس فنجاناً من
القهوة ، والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها
الإنكار والدهشة .

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه
القهوة النائية في الصحراء ، فقد زارها زيارة سميعة
لم تكن في الحسبان منذ أمد غير قريب . وما دفعه
إليها تلك المرة إلا الملل الرائد على نفسه التي شبعتم
من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ من العناء وتركته
يتخبط حائراً ما بين اليدين والأزقة لا يهتدى إلى
مستقر . وما عاج به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله
من أطيان الذكريات الحلوة ...

وجلس يلقى على المسكان نظرة تذكر وحنين ،
ولم يكن يرى منظرًا غريباً ، فإنه يذكر ولا شك تلك
الآبنية العالية التي يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوي
قرع آلات في داخلها ، وهذه الصحراء المترامية
التي تنتهي شطآنها البعيدة إلى مآذن القاهرة العزبة ،
ولكن ماله يلتفت بعنة ويسر ؟ .. هل يفتقد منظرًا
يذكره ولا يجده ؟ ..

نعم . إن الصورة التي انتزعها رأسه من المسكان

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربي وقد
شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولي عنها تيه
الفتوة وزهو الشباب . ومضى شماعها الشاحب
يوغل شرقاً مودعاً رمال الصحراء الناحية للعباسية
موسماً وراءه للسمررة الزاحفة .

ولم يكن في الطريق الذي يخترق الصحراء - في
تلك الساعة - سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على
مهمل ، كأن لا غاية لها سوى السير . ويسوقها
شاب تدل نظرة عينيه الظلمتين على الملل وعدم
الأكتراث .

وتقدمت السيارة في الطريق حتى حاذت أبنية
المصانع الجديدة التي تشغل مساحة واسعة من فضاء
تلك الصحراء ، ثم وقفت أمام بناء صغير كتب
على لوحة في أعلى واجهته « مطعم وقهوة الزملاء »
وكان البناء مكوناً من قسمين : واحد مسقف درست به
موائد الطعام الخشبية التي يتناول عليها الطعام عمال
المصانع القريبة ، والآخر مكشوف معشوب
الأرض ، وضمت به الكراسي حول نافورة من
ماء آسن أقيمت حولها عمدة خشبية علقت برؤوسها
الكلبسات .

— نم شفق بنير شك
 — ولماذا شفق ؟
 — لسبب تافه جداً
 فاستولت الدهشة على الشاب ويسأله :
 — كيف يشفق لسبب تافه ... ماذا فعل ؟
 فقال الغلام بهدوء :
 — قتل ...
 فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال :
 — ولكن ليس هذا بالسبب التافه
 — قتل بنياً ...
 ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه ، لأنه قطعه
 عليه دخول جماعة من العمال ونداء المعلم له خيا الشاب
 وانصرف إلى عمله ...
 لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى
 لهذه القهوة ... دمرت مدينة ، وتشتت أهلها ،
 وشفق رجل كانت حنجرتة تنفث سحراً وبهجة ،
 فما أمس بحيته هذه الليلة ! جاء يطلب لهواً ومسرة
 فوجد خراباً وموتاً !
 ولبت كثيباً حزيناً ، وراح يفكر في زيارته
 الأولى تلك الليلة القمراء السميدة ...
 كان في مساء تلك الليلة جالساً في سانت جيمس
 يشارب جماعة من صحبه كما هي عادته كل مساء ، وقد
 تركوا الحانة في الساعة العاشرة ، ورأى بعضهم
 أن يمضوا الليل في صالة رقص أو غناء أو نساء ،
 ولكنه لم يجد من حواسه ميلاً إلى تلك التمتع .
 كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل
 والفراغ ، وكان يعاني شبعاً ثقيلاً صرف هواه عن
 الدنيا جميعاً فأمسى الرقص والغناء والنساء أفاظاً
 لا معنى لها ؛ وانقلب جسد الأهواء الفنان في عينيه

في تلك الليلة القمراء ناقصة ... ولا تنقص شيئاً
 تافهاً ، بل تنقص مدينة كاملة ... مدينة الصفايح
 الفريية ... كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد
 عشرة أمتار من مدخلها ، وكانت مبانيها أكواخاً
 من الصفايح التي علاها الصدا ، تأوى رجالاً ونساء
 وأطفالاً ، وترعى في عرساتها المزمز والكلاب ...
 أين ياترى هذه المدينة ؟ أم تراه اشتبه عليه الأمر ؟
 ولكي يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله
 وهو يشير بيده إلى الوضع الخلاء الذي أحدث ارتياحه :
 — ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفايح ؟
 فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال :
 — بلى ، يا بك
 — فأين ذهبت ؟
 — هدمتها الحكومة
 فقطب الشاب جبينه وسأله :
 — متى ... ولأى سبب ؟
 — منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن تأكد البوليس
 من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة
 لم يكن في الخبر ما يشير الدهشة ، ولكنه ذكر
 شخصية غريبة فقال :
 كان يوجد هنا رجل مقن يدعى أبو لبه ...
 أو أبو رنه لا أذكر ... ألا تعلم أين هو ؟
 فتفكر الغلام دقيقة ثم قال :
 — لعله أبو سنه يا بك
 — أظنه هو ، كان يغنى غناء جميلاً وينشد
 إنشاداً ساحراً ...
 — نعم هو يا بك . ولكنه شفق وأسفاه !
 وازعج الشاب وسأله :
 — أقول إنه شفق ؟

بأطراف النور الفضي كن يتقلب على بركة من الرثيق.
 أى حسن ... ! وأى شعور ... ! فى تلك الساعة
 السعيدة نسي مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل
 الجاثم على صدره ، وذهب عنه شبعه الزمن ، وأحس
 بجدة وبث وسمعة وحب. فأشد الصامت فى أذنيه ،
 وابتم العابت لعينيه ، ولولا الحياء لاندفع برقص
 وينغى وينشد طرباً وفرحاً . وبالغ صاحب القهوة
 فى إكرامه والترحيب به ، وأحضر له (الجوزة) بنفسه
 وهو يقول بتودد : « آنت وشرفت » . وكان
 شيخاً فى الستين ، قصير القامة ، بطينا ، ضخ
 الوجه والرقبة ، فلم يسمع دأنش — اسم الشاب —
 إلا أن يشكره

وأراد الرجل أن يبالح فى إكرامه فقال :

— آحب يا بك أن تسمع غناء بلدياً ؟

فسر دأنش وقال لنفسه ليلة قراء ونجر وجوزة
 وغناء بلدى ! يالها من ليلة سعيدة حقاً ... وقال
 بحماس للرجل :

— نعم ... نعم ... أين المغنى ؟

فنادى الرجل :

— أبا سنة ... تعال

وتقدم من بين صفوف الجالسين شاب طويل
 القامة عريض المنكبين ، لم يجمل نور القمر الناحب
 قسما وجهه ، وأسدل ظلا على أسنانه البالية
 دما من صاحب القهوة وقال :

— نعم

فقال له الرجل :

— أقعد يا عم ... يريد البك أن يسمع غناءك

وقال دأنش :

جثة هامدة ، فودع صحبه وتركهم يذهبون
 وتلفت بمنة ويسرة فى حيرة ... إلى أين يذهب ؟
 ولم ينقذه من حيرته إغراء ... فترك الله ووحده
 وسكره ...

ثم استقل سيارته الصغيرة وانطلق بها على غير
 هدى ، وساقه التخبط إلى العباسية ، ودفعته العباسية
 إلى حرائها الشرقية . ولفتت ناظريه — فى الطريق
 الصحراوي اللتوى — أنوار خافتة تنبعث من القهوة
 المنزلة ، فهذا من سرعة السيارة ونظر صوبها فسر
 منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون الترد والورق ،
 وحمل الهواء إلى أنفه رائحة « التباك المسل »
 قسربت إلى منحه وأطربت أعصاب رأسه ، فانقشع
 عنه كابوس السقم ، وأدار السيارة إلى أمام مدينة
 الصفايح ووقف ، وحسب أن جلسة فى هذه القهوة
 ونفساً من هذه (الجوزة) يساويان نعيم الدنيا الذى
 أنهلك قواء وأضنى قلبه

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين ولكنه
 لم يجد حرجاً ولم يستشعر خجلاً إذ أخفت الحمر عن
 عينيه نظرات الآخرين ، وقصد إلى ركن خال واطمان
 إلى كرسى ، وطلب جوزة ... وكان القمر بدرأ
 والسماء صافية ، كأنها تمرت تستحم فى نوره البهي ،
 فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء القاعة
 وكأنه يرى القمر لأول مرة ، بل لعله كان يراه لأول
 مرة حقاً ، لأنه كان فى المادة يمر على محاسن الكون
 ومفاته بعبثى أعشى وأذى أصم . أما تلك الليلة
 — والحمر فى رأسه و (الجوزة) فى فمه — فقد نظر ،
 وقلب وجهه الداهل فى أقطار السماء والقضاء ، وخال
 الأنوار الهادئة ترقص طرباً والقمر الساطع ينشد
 نشيداً ترتله السموات والأرض ، وأحس كأنه مطلق

الذي مس روحه بنفثة من سحر صوته ، فدرس يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهات ، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة ثم نظر إلى الغني ملياً ووضع الورقة في يده وهو يقول :

— هذه لك ...

لم يداخله التردد مطلقاً ، وما كانت ثمت قوة في الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والمطاء تلك الساعة ، أما الرجل فسهم ووجه وأدنى الورقة من نور الصباح وتأملها بإنكار ، ولح الورقة في يده أحد الجالسين فاقرب منه ونظر إليها لحظة ثم قال بلهجة خبير :

« ورقة قديمة من ذات العشرة قروش ... كانت متداولة أيام السلطنة »

فتصاحك دانس وقال للرجل بصوت صممه كثيرون ممن حوله :

— جزاك الله على ما أسعدتني خيراً ... هذه ورقة من ذات العشرة جنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئاً تافهاً إلى ما أحسست به من السعادة ... السلام عليكم يا سادة ...

على أنه رأى منظرًا عجيباً — زاد من مسرته — قبل أن يغادر القهوة

رأى أباسنة يهب واقفاً فرعاً ، وسمع همساً تتناقله الشفاه ، ثم علا ضجيج ، ثم ساد صمت ثقيل ، وقد كفت كل يد عن اللعب وكل فم عن التدخين والتفت الأبصار جميعاً عند الغني السعيد

ولبس طربوشه وسار إلى سيارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفص عنه راكد السقم والملل ، وعاد إلى المدينة ، ثم ألمهته الحياة عن الصحراء

— نعم ... أسمعنا ... أسمعنا

ثم التفت إلى صاحب القهوة وقال :

— يا معلم ... هات « للأستاذ » جوزة

وانبسطت أسارير الشاب فرفع يده إلى رأسه نحية وتربع جالساً على الأرض أمام البك ، وسمل مرآت متوالية يسلك حنجرتة ، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى يفتي (ليالي) في صوت جميل ظن دانس في نشوته أنه أجل من أصوات الحور في الجنان ، ثم أنشد :

بكره وبسده وبسده اللي ورا بسده

وإن غاب حينيك مالكني في البلد بسده وكان رأسه يهتز وجسمه يتأيل ، وكان جميعه في حركة وجدانية تمثيلية غريبة . وكان صوته يتهدج ويتوجع ، يملأ تارة حتى يملأ الفضاء ، ويخفت أخرى حتى ينفذ إلى أعماق القلب ، وما انتهى من إنشاده حتى صمدت آهات الإعجاب من كل فم ، وكان الشاب أول المعجبين ، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكل واحد من الجالسين (جوزة) وصاح بالغني :

— لا أسكت الله لك صوتاً ... أسمعنا موالاً

آخر ...

فهز الرجل رأسه غملاً غموراً ووضع يسراه على أذنه ، ويمناه على الجوزة . وأنشد :

بيني وبين الحباب جبل عال وتل حشيش

وبحر خمره ونفسي في التبيذ ولا فيش ولما انتهى الغني من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانس مبلغاً ظن أنه لن يذوق الملل معه أبداً ، وأحس بالرضاء والنبطة ، وأغم قلبه بماطفة سعادة وخير فود لو يستطيع أن يفمر كل محزون بفيض من سعادته ، ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل

وقهوة الصحراء وأبى سنة حتى وجد نفسه فيها
هذا المساء

فما أشد ما نزل بالدنيا من تغير ! اندثرت مدينة
الصفائح العاصرة ... وفتك الحبل بمنق أبى سنة
الجميل وحنجرته الذهبية ... يا للعجب ! كان أبو سنة
مطرباً فكيف صار قاتلاً ... ؟ ووجد رغبة صادقة
في السؤال والتحرى عنه ، وكان صاحب القهوة
جالساً بمكانه المهود عند مدخل المطعم ، فأشار إليه
وناداه قائلاً : « يا معلم » وحدث الرجل في مصدر
الصوت وهو يضيق عينيه ، ثم سار إليه ، فلما دنا
من صاحبه ورأى هيئته المميزة ابتسمت أساريره
وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام ، ولكن لم يبد
عليه أنه عرفه أو تذكره ، وطلب إليه دانس أن
يجلس ثم قال له :

— أراك لا تذكرني يا معلم

فخدجه الرجل بنظرة إيمان وارتباك وتمتم وعلى
فه المريض ابتسامة حارة :

— أهلاً وسهلاً ...

فأردف دانس :

— ألا تذكر تلك الليلة القمراء ؟ ... والمعنى

أباً سنة ؟ ... وموال بكره وبعده ؟ كم مضى على تلك
الليلة ؟ ... ثمانية أشهر أو يزيد ، ألا تذكر ؟
ونظر إليه الرجل نظرة غريبة ، كان الشاب
يتوقع أن يقرأ فيها الدهشة والترحاب ، ولكنه
وجدها جامدة ثقيلة ...

— ألا تذكر يا معلم ؟ ...

فهز الرجل رأسه وقال :

— بلى ، أذكر يا بك

— سمعت خبراً غريباً مزيجاً ... هل حقاً شفق

أبو سنة ؟

— نعم شفق الرجل التمس

— وكيف شفق ؟

— أحب أن تعرف يا بك ؟

— طبعاً يا معلم

فقال الرجل بصوت غليظ :

— ألا تذكر الثروة التي رميتها بها في تلك الليلة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للجنة
الرجل ، أما المعلم فاستطرد قائلاً : « في تلك الليلة
شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظرًا عجباً ، فعلى أثر
ذهابك انتبذ أبو سنة مكاناً خالياً وجلس ويده تمسك
بالورقة الثمينة ، ولم تكن عادة أن يجلس صامتاً فهو
إما يضاحك القوم أو يفتنهم وينشد لهم ؛ أما في تلك
الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطرباً وجعل يحتلس
من الجالسين نظرات الريبة والقلق ويحمن في الورقة
نظراً يتنازعه الشك واليقين والذعر والأمل . ودنوت
منه وطلبت إليه أن يطلعني على الورقة فأطلعني عليها
وهو قابض على طرفها فمرفقها وأمنت على قولك له
دهشاً متعجباً ، وقلت له لقد أنتك ثروة واسعة .
وكان محط الأنظار ومثار الاهتمام والهمس ، وكنت
أتوقع أن يغادر المكان سريعاً ولكنه ظل ذاهلاً
يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتمتع دعر مرعب ؛
ولعله كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب ،
فهو آمن وسط الجميع ولكن أتى له الأمان إذا انفرد
في الطريق أو آوى إلى كوخه في مدينة الصفائح ؟
ومدينة الصفائح لا يعرف أهلها من العملة سوى
الملاليم ، ولا ينمض لها جفن إذا علمت أن بين
حدودها ورقة من ذات المشرة جنهات ، فما العمل ؟
بات خائفاً مذعوراً وأمسى الجميع أعداءه

وسكت الرجل دقيقة ثم رمق الشاب بعينين
أحرق الاحمرار أشقارهما واستطرد :

الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات فقالوا إن الدنيا تبسم له ، وإنها في إقبال عليه بتزايد يوماً بعد يوم ، فالأموال تتفاطر عليه من كل يد ، والنساء يتهاقن عليه من كل باب ، وإنه بطر وطنى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب ...

كانت أخبارا غريبة يمز تصديقها ، ولكنها فتحت أخيلة شباب مدينة الصفائح ، وأثارت الطمع في قلوبهم ، فلحق به نفر منهم إلى مهاوى الفجور ومدوا إليه يد الأخوة وقاسموه الخير والشر فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب ...

ولبت تلك الحياة ما لبثت ، ثم انقطعت بفتة على أسوأ حال ، وقيل في ذلك إن الرجل رجع يوماً إلى مخدع عشيقه له على غير موعد فوجدها بين يدي أحد أتباعه ، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستل خنجره وقتل به الاثنين ، وقبض عليه وعلى عصافته وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذاك الشر ، وانتهى الأمر فشنى أبو سنة ، وسجن أتباعه وهدمت المدينة المظلمة . وسبحان من له الدوام يا بك !..

كان دانتش يصنى إلى محدته في ذهول ، وسمعه يختم حديثه بلهجة صريرة ساخطة فسرت في جسمه هزة عنيفة ، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام مترجماً وغادر القهوة دون أن يلقى عليها نظرة وداع . . . كان كشيئاً منقبض الصدر

وكان يتذكر الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فتمر بفيضه بمض القلوب ، ويتمجب ! كان ليلى سعيداً فرحاً ينشد السعادة للجميع فكيف انقلب غرضه عليه ؟ ... كيف خانه الهدف فدمر مدينة وشردها أهله ؟ ... وأسفاه ! ...

نجيب محفوظ

— وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرّضه على الاستهتار ، فما كان منه إلا أن قام بفتة وقال بصوت مبجوح : « السلام عليكم يا إخوان » وغادر القهوة على عجل ، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجته وأسرته انخرق إلى اليمن وأوسع الخطى حتى ابتلمته الظلمة . وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمناً يسيراً ثم كر راجعاً وهو بصيحه ضاحكاً : « ألا تعلمون .. إن الرجل الممتوه يمدو بقوة كأنما يطارده مطارده عنيف » وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسخر واللمن ، وهكذا غادرنا أبو سنة ...

وذاع الخبر حتى بلغ مدينة الصفائح ، فجاءت أسرة المغنى على عجل ، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر . فلما أن صح لديهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة ، وظنوا أن المغنى ذهب ليدفن كنزه في مكان أمين فقمعدوا ينتظرون ، وطال بهم الانتظار على غير جدوى ، فزع الأكرهون ونفروا ولم يبق إلا أفراد أسرته ، ولبشوا طويلاً يترقبون ولكن أباسنة لم يعد وهنا غلب السعال على « المعلم » فنهه عن إتمام حديثه ، وانتظروا دانتش حتى رد إليه النفس واستحثته بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل :

— كلاً لم يمد أبو سنة ... وما كان ليمود ... لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد . باعهم جميعاً بتلك الورقة السحرية ، ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته ؛ فخرج في طلبه والبحث عنه . ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبية ، فقيل إن المغنى التائه قاده قدامه إلى الأزبكية ، وإن بنياً وقعت في هواه وأوقته في شراكها . ثم قيل إنه اشتغل بالغناء في قهوة بلدية بالأحياء الموبوءة ، وأخذ